

نفحات القرآن

[277] وباق، لا يتغير بسهولة (1)، فانَّ نَقْشَ الكفر والنفاق والاثم نُقِشَ على قلوبهم فلا يمحو بسهولة. * * * وتحدثت الآية العاشرة والحادية عشرة عن "الختم" وكما قلنا سابقاً في شرح المفردات: إن الختم يعني الانتهاء والفراغ من شيء، وبما أن الرسائل تختم عند الفراغ منها استعملت هذه المفردة هناك أيضاً، وختم الشيء قفله وشده بحيث لا يمكن لأحد فتحه، والمراد من الختم على القلوب والأسماع والابصار في الآيات، هو سلب قدرتها عن التمييز بين الحق والباطل، والخير والشر وذلك بسبب أعمال أصحابها وتصرفاتهم، ولهذا يذكر القرآن في الآية السابقة: (إِنَّ السَّادِّينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَايَهُمْ أُنْذِرُهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) (البقرة / 6). المسلم به هو أن هذا الخطاب لا يعم الكافرين كلهم بل يخص المتعصبين والمعاندين منهم، أي أولئك الذين عرقوا بذنوبهم إلى درجة حيث أصبحت قلوبهم ظلماء، والآن فالنبي أُرسِلَ مبشراً ومنذراً للكافرين والمنحرفين. والجدير ذكره هنا هو أن الآيات تحدثت عن الختم على الابصار والسمع كما تحدثت عن الختم على القلوب، وهذا تلميح منها إلى أن السمع والبصر قد يتعطلان، أي قد يتعطل الإدراك الحسي كما يتعطل العقلي، وكما تعلم أن أغلب العلوم البشرية تحصل بواسطة هذين الحسنيين، وحتى حقانية الوحي ودعوة الأنبياء تكتشف بهما، ومع تعطلهما فإن طرق الهداية والنجاه ستغلق أمامهم، وهذا من سوء أعمالهم بأنفسهم، ولا يستلزم جبراً كما يدعيه بعض الطائنين. وقد جاء هذا التعبير في مجال الطبع كذلك، حيث يقول تعالى في الآية (108) _____ 1 - تفسير المنار الجزء 9 الصفحة 33.